كلية : الآداب

القسم او الفرع : التاريخ

المرحلة: الاولى

أستاذ المادة : ا .م. د. منير عبود جديع

اسم المادة باللغة العربية :العصور الوسطى الاوربية

اسم المادة باللغة الإنكليزية : European middle age

اسم المحاضرة الرابعة باللغة العربية: الاقطاع

اسم المحاضرة الرابعة باللغة الإنكليزية :Feudalism

الاقطاع من المواضيع التي تعددت الآراء فيه وتشعبت؛ فأصبح من العسير حقا إيجاد مدلول موفق لكلمه الاقطاع ذاتها. فلم تكن التسميه لتشيع حتى أواخر القرن الثامن عشر.. أي بعد أن لفتت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ انتباه المؤرخين لبعض الصفات البارزة لنظام العهد البائدفي فرنسا OId Regime . فأصبحت منذ ذلك الوقت المفردات اللغوية للإقطاع اعتيادية في لغة التاريخ الأوربي. ومن الملاحظ في هذا الشأن ان التغييرات والتسميات الإقطاعية محط جدل ونقاش بين المؤرخين المحدثين.. فتبدو مثلا بعض المؤسسات لفئه من المؤرخين بأنها مؤسسات اقطاعيه بينما لم تكن هي كذلك بالنسبة الي فئه أخرى. وأشار إلى هذا المعنى كل من المؤرخين بالوك وميتلاند . Panock. and Maitland أن تعريف الاقطاع من جمله المصطلحات التي غولي في معانيها تاريخيا. اذ اعتبر قسم من المؤرخين كافه المؤسسات غير الدينية وما قام به الناس من فعاليات في شتى ضروب الحياة بأنها مؤسسات وفعاليات اقطاعيه منذ القرن السابع حتى القرن الخامس عشر فتكلموا عن حكومات اقطاعيه ونبلاء اقطاعيين ومجتمع اقطاعي ومقاطعات اقطاعيه. وهكذا تبدو لنا مدنيه القرن السابع البدائية مثلا وكأنها لا تفرق في شيء عن مدنيه القرن الثالث عشر في أوربا فكلاهما مدنيتان اقطاعيتان... ومهما يكن من أمر فإن موضوعنا سوف يقتصر على دراسة المؤسسات الإقطاعية الرئيسية والتي هي حصيلة تطورات للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية للمجتمعات الأوربية الغربية بدأ التعامل الأولى الاقطاعي في أواخر عهد الإمبراطورية الرومانية في جهاتها الغربية خاصه وأخذ يكتسب خطوطه الأساسية في العصرين الميروفنجي و الكارولنجي إلى أن بلغ عنفوانه وتبلوره بين القرنين العاشر والثاني عشر. ومن هنا نشأت التعريف القائل بأن الاقطاع تجربه عمليه فرضتها الحوادث كبديل عن الحكومة المركزية ابتغاه الحصول علي قسط من الأمن. ويجب أن نتذكر بأنه ليس من الضروري أن يكون الاقطاع نتيجة لانحلال السلطة المركزية. لأن ما حدث للإمبراطورية الكارولنجيه لا يكون قاعده قياسيه. وليس من الضروري أيضا أن يكون الاقطاع ممول هدم لكيان الدولة. فوليم الفاتح مثلا سواء أكان قد ادخل الاقطاع إلى انكلترا أو حد من تعاظمه فقد نجح في جعل الاقطاع في خدمه السلطة المركزية. هذا ويعتقد البعض أن الاقطاع في معناه الاقتصادي عباره عن مرحله تمر بها الشعوب اثناه مسيرتها نحو التطور من إنتاج عبودي إلى ما هو أرقى أن المدة الكائنة بين نهاية القرن العاشر وبداية القرن الثالث عشر تعتبر عاده الفترة التي سادت فيها المؤسسات الإقطاعية أقسام أوربا الغربية وخاصه الأقسام الشمالية والشرقية لفرنسا والأقسام الشمالية لألمانيا وفي بريطانيا. وهي الفترة التي أخذ فيها الاقطاع كامل بلورته اما القرون التالية لذلك التاريخ فتعتبر مراحل تحول وانتقال في المؤسسات الإقطاعية على إثر التقدم التجاري والزراعي والصناعي في تلك الأرجاء وهنا لا بد من التمييز بين الاقطاع من جهة وبين ما كان سائدا من ظواهر اجتماعيه واقتصاديه متقدمة

كانت أم متأخرة أو في طريقها إلى الزوال لم تكن ضرورية لقيام الاقطاع. فالنظام الطبقي الذي يعتمد بوجوده على النبلاء الوراثيين كان مألوفا قبل العصور الإقطاعية وفي اثنائها وما بعدها أيضا. لهذا لم يكن الاقطاع إذن وليد النظام الطبقي الاجتماعي الموروث. فالطبقات الاجتماعية العليا القديمة قد شارفت على الزوال منذ اشتداد الغزوات الجرمانية وتقطيعهم أوصال الإمبراطورية في الغرب. وتكونت لدينا طبقات جديده ذات اختصاصات ووظائف تستحدث استحداثا تبعا لتقلبات الأوضاع. وهذا مع العلم ان سداده الاقطاع ولحمته هي الطبقية شكلها العامودي والافقي ونقصد بالعامودية أو الهرمية المسؤولية المتدرجة بين الملوك وأمراء الاقطاع وكافه الأرستقراطية الإقطاعية. أما الطبقية الأفقية فنقصد بها مراكز الأفراد والاجتماعية وهنا يجدر بنا أن تتساءل هل أن الممتلكات الزراعية الكبيرة سببت ظهور الاقطاع؟ هناك فئه من المؤرخين لا تعتقد بذلك فالأطيان الشاسعة كانت مألوفة قبل الاقطاع وما بعده حتى في قسم من الدول المتقدمة في عصرنا هذا بالرغم من أن الأرض وما تفعله زراعيا تمثل العمود الفقري للحياة الاقتصادية طيلة تلك العصور. وعلى هذا الرأي فإن الممتلكات الزراعية الكبيرة لا تؤدي بالضرورة إلى الاقطاع فهي بذلك كالعامل الحديثة لا تؤدي حتماً إلى الحكم الديمقراطي ولهذا يقال عن الاقطاع أحياناً بأنه (اسلوب من أساليب الحكم تمارس فيه السلطة نتيجة لاتفاق بين تابع ومتبوع أو سند ومسنود).

ومهما تعدد البحوث في الاقطاع واختلفت فيه وجهات النظر فلا بد وأنها تتفق على مكوناته الأساسية الا وهي

1-التبعيه Vassalage

تستند هذه على علاقه شخصيه بين سيد ومسود يتعهد فيها الأخير الدفاع عسكريا عن الاول ومقابل حمايته من غوائل الدهر. فالتبعية في بدايتها إذن ترمز إلى الناحية العسكرية. أما جذورها التاريخية وكيف أنها تطورت إلى مؤسسه عسكريه كبرى متالفه من فرق المشاة في أول الأمر ثم تحولها إلى فرق الفرسان فهي من الأمور المختلف فيها أيضا فهناك من يعتقد بأنها من أصل جرماني مارسها الغزاة في ديارهم وأثناء استيطانهم في الإمبراطورية الرومانية ويشار لها بالرفقة الباسلة Comitatium وتتألف هذه من الأحرار الذين يكونون حاشيه الرئيس أو معيته العسكرية نذروا أنفسهم للموت دفاعا عن زعيمهم وينسب البعض المؤرخين جذور التبعية تاريخيا إلى مؤسسه رومانية يشار لها بالحماية Patrocinium. وهي أن يضع الفرد الحر نفسه وما يملكه تحت تصرف زعيم من الزعماء لقاه منافع متبادلة دفاعيه ومعيشيه ويشارإلى عمليه انضواء الفرد تحت لواء الزعيم بالالجاء Commendation لقد شهد العصر الميروفنجي تكاثر الاتباع نتيجه لفوضى الحروب الأهلية وماسيها ولم يشذ عن ذلك الكارولنجيون. اذ أصدر شارل الأصلع سنه ٨٤٧ بالاتفاق مع اخويه مرسوما يحتم فيه على كافه الأحرار في الإمبراطورية الانضواء تحت لواء شريف يختارونه بأنفسهم. وهكذا ازداد عدد الاتباع Vassals ازدياد هائلا واصبح ينقسم السكان إلى طبقتين الأولى الطبقة الأرستقراطية الإقطاعية المتألفة من النبلاء واتباعهم

واتباع الاتباع Subvassals والثانية طبقه الاقنان Serfs والعبيد Slaves تعتمد مؤسسه التبعيه في الاقطاع المتكامل على واجبين أساسيين هما الولاء Homago والإخلاص Fealty. فلاجل أن يكون (ب) تابعاVassal عليه المثول بين يدي سيده(ا) مؤديا له واجبي الولاء والإخلاص. وتجري مراسم التدشين حسب الطريقة التالية. فيظهر (ب) حاسر الراس مجردا من سيفه راكما بثني ركبته أمام (ا) ثم يضع يديه بين يدي سيده معترفا بصوت مسموع. انه اصبح من الآن فصاعدا تابعا قاطعا على نفسه كافه العهود التي تربط التابع بسيده. وان يعادي من عاده ويوالي من ولاه من الاحياء كانوا أو الأموات. وبعد أن يهتفوه (ا) بكلمات ترحيبيه يعلن موافقته على ما قدمه (ب) من طاعه على رؤوس الأشهاد فيأخذ بيده منهضا اياه وطابعا على جبينه قبله كرمز للولاء المتبادل كما هي العادة آنذاك. ثم يقوم (ب) بتأدية القسم على الكتاب المقدس أو على ايه مخلفات أو شارات دينيه. مؤكدا في القسم اخلاصه على ما قطعه على نفسه من تعهدات. ويجب أن نتذكر بأن الالفاظ المستعملة في القسم لم تكن في سياق واحد فهي تختلف في المكان الواحد ومنه إلى آخر ومن زمن إلى زمن. كما يتوضح ذلك في القسوم التي رددتها المصادر عن فتره عنفوان الاقطاع. ومما يلاحظ أيضا أن السيد لم يقطع على نفسه الإخلاص لتابعه. غير أن مجرد موافقته على ما قدمه التابع من مظاهر الطاعة يعتبر عهدا مقطوعا عليه يتحتم فيه على السيد الوفاه بحقوق التابع التي تضمنتها أعراف مدونه أو غير مدونه. ويحق للتابع حسبما جاء بمراسيم شارلمان هجر سيده فيما بعد حاول الأخير انزاله إلى مرتبه العبودية أو أراد بأهله سوء أو حاول قتله وكذلك في حاله فشل السيد في التقديم الحماية التي في استطاعته لتابعه وهذا ويشير المؤرخ كانشوف Ganshof بأن قسم الإخلاص أضيف إلى عمليه الالجاء Commendation بعيد منتصف القرن الثامن. ومن أقدم الوثائق في هذا الشأن التي تشير إلى تبعيه أمير بافاريا تاسيلو سنه ٧٥٧ إلى الملك ببين الثالث. اذ جاء في السجلات الملكية الفرنجية ما نصه :

(جاء تاسيلو دوق بافاريا إلى ببين والجا نفسه إليه باختياره فأصبح تابعا. وحلف إيمانا.... على اخلاصه.. ووعد الولاء إلى الملك ببين والي ولديه من بعده هما السيدان شارل وكارلومان ويذكر الأستاذ السابق بأن شارلمان حاول توحيد القسوم بين اتباعه. اذ أمر بتعميم صيغه القسم التالي سنه ٨٠٢ على امراءه اقسم بأن أكون مخلصا إلى السيد الإمبراطور شارل بن الملك ببين والملكه برثا Berta. اخلاصا حقيقيا.. من أجل الحفاظ على مملكته وصيانه حقوقه واني اتمسك من الآن فصاعدا بهذا القسم واسمي للمحافظة عليه كما فهمته... بعون الله خالق السماوات والأرض وبعون تلك الشارات المقدسة) احيطت مؤسسه التبعية بهالة من التقديس في العصر الكارلونجي ومن الأمثلة الموضحة لذلك هي رساله الأميرة داودة Dhaouda زوجه برنارد أمير سبتمانيا Septimania الموجهة إلى ابنها الأكبر وليم سنه ٨٤٣ تحته فيها على تكريس نفسه لخدمه الملك شارل تنفيذا لأوامر والده. ومن أهم ما جاء فيها : ولدي وليم : أن الله تعالى حسبما يبدو لي قد اختارك وانتفي مقتبل العمر أن

يجعل من شارل سيدا لك وكذا كانت رغبه والدك. تذكر سجل أسرتك الناصع من جهتي امك وابيك واخلص للواجب. لا تكن عليه بإخلاصك ضنينا أو متظاهرا. فليجر على لسانك ما في قلبك خيرا.. ان الرغبة تحدوني يا بني إن اطالبك بالإخلاص في كافه المهمات المنوطة بك بكل ما تملك من حول وقدره جسميه وروحيه... عسى الله أن يجنبك حماقه الكفر والجحود ونكران الجميل وان يسدد خطاك ويرعاك ويطهر قلبك لكيلا يجردك من الإخلاص لسيدك في أي أمر من الأمور. انتي لم أشك يا بني في أمرك... ولدى وليم يا من تجري دمائي في عروقك. أظهر نفسك لسيدك بالشكل الذي أوصيت به عليك كن شهما صادقا نافعا جاهزا لخدمه سيدك. وأظهر الحكمة التي حباك الله بها في كل شيء يخص السلطة ومصلحه الملك داخل البلاد وخارجها

2- الضيعة Fiefdom

وتستند هذه على الأرض الزراعية المقطعة Feud وعلى كافه حقوق الاستثمار الاقتصادي سواء أكانت الأرض المقطعة متالفه من ضيعه واحده أو عده ضياع ويتم الاستثمار بتعهدات عرفيه أو تعاقديه بين سيد وتابعه. ويعتقد بأن أصول هذا المؤسسة ترجع إلى ذلك النوع من الاستثمار الاقتصادي الزراعي الذي كان شائعا عند الرومان المستند على التملك الأرضي المؤقت Precaria والذي أصبح في أوائل العصر الوسيط اساسا للتملك الاقطاعي المؤقت الذي يشار بأرض الإحسان أو المنعمة Beneficium هذا وان الأرض المقطعة بموجب ذلك النوع الأخير من التملك اما أن تكون من ملوك وهبوها لاتباعهم أو أنها كانت في الأصل لمزارع صغير تنازل عن ملكيتها خوفا من عاديات الدهر؛ لمؤسسة دينيه أو لنبيل قوي مقابل حمايته والسماح له بالانتفاع من استثمار سطحها Usefrac مدى الحياة. موديا إلى الجهة الحامية ما تنص عليه شروط الاتفاق. ويجوز للجهة المتنازل إليها أن تتصرف بالأرض عند موت المستثمر فتحرم الوراثة الا ان العادة قد جرت بإبقاء الأرض في اسره المستثمر بحسب شروط الاتفاق الأول على الأغلب كما أن الأمراء باختلاف مراتبهم قد يقطعون Infeud قسما من أراضيهم الخاصة إلى أتباعهم المحاربين. وكان يحق في الابتداء للتابع المقطع أن يتصرف بأقطاعه مدى حياته فقط غير أنه جرى مؤخرا أن تبقى الإقطاعية وراثيه في الأسرة. ويجوز للتابع أيضا أن يقطع أجزاء من أرضه إلى اتباع خاصين به Subvassals ويشار إلى هذه الحالة بالتجزئة الإقطاعية Subinfeuda tiön اي الاقطاع الفرعي. ان قطعه الأرض المتنازل عنها من تابع إلى سيده أو من سيد إلى تابعه والتي اصبحت فيما بعد وراثيه في عائله المستثمر لقاء تعهدات معنيه أخذت تسمى بالأملاك الإقطاعية Fiefholdings

3-السلطه القضائية

لا يمكن أن يكون الاقطاع متكاملا الا اذا اتحدت التبعية بالمؤسسة الضيعية واقترفت بحق ممارسه السلطة . أن الوحدة الإقطاعية التي يسود فيها السيد الاقطاعي تسمى بالدومين Dominium أو لوردشب Lordship.

ويمكن لنا أن نسميها مجازا. _ السلطة الإقطاعية. يفهم من الدومين أو السلطة الإقطاعية التملك والحكم غير المطلقين.. فلا يحق للسيد أو السلطان الاقطاعي أن يصادر ما في حوزه اتباعه حسب هواه أو أن يجوز عليهم في الحكم. ان حقوقه في الحكم والتملك حددتها الأعراف والعقود الإقطاعية. هذا مع العلم ان اتباع اللورد Vassals على اختلاف مراتب بالتجزئة الإقطاعية S مسؤوليتهم ينتمون إلى الطبقة الأرستقراطية الممتازة التي ينتمي إليها اللورد نفسه جاءت السلطة التي ادعاها الاقطاعيون من مصدرين رئيسيين اولاهما أن أمراء الاقطاع في بدايتهم عباره عن موظفين أو اتباع مباشرين للملك أو الإمبراطور. استحصلوا اعفاءات وامتيازات وصلاحيات حكومية واسعه في مناطقهم الإدارية. وقد استأثر هؤلاء بالسلطة الحكومية لأنفسهم عند انفراط السلطة المركزية كما حدث ذلك في الإمبراطورية ألكارولنجيه بشكل ملحوظ وثانيهما عن طريق القوه والاغتصاب كما حدث ذلك أثناء الغزو الثاني علي أوربا أن المحاكم في الاقطاع على درجه كبيره من الارتباك فلم تكن هناك قوانين مدونه وإنما اعتمدت الأحكام على العرف والسوابق وما احتوت عليه العقود الإقطاعية كما لم تكن كافه الوحدات الإقطاعية الكبرى خالصه لرئيس واحد فهناك المحاكم الدينية والملكية ومحاكم الرئيس الاقطاعي وقد تكون في الدومين الواحد محاكم أخرى تابعه لرئيس اقطاعي آخر جاء ذلك الحق نتيجة لوراثه اقطاعيه أو لتحديه سيده بعدم الاعتراف بالتبعية له توجد عده إجراءات قضائية اقطاعيه في تسويه الخلاف بين المتخاصمين منها تحكيم السيف عن طريق المبارزة Duel واقتصرت هذه في البداية على الأمراء والأحرار وهناك التحكيم المحني Ordeal والذي أشرنا إليه ولعل أشد الإجراءات التي تصدرها محكمه السيد الاقطاعي هي في قضايا الخيانة العظمى. ويقصد بذلك اي عمل يقوم به التابع من شأنه أن يتنافى ومقام السيد الاقطاعي وقصد بها على وجه الدقة عدم وفاء التابع بتعهداته وعلى سبيل المثال لو غيب التابع نفسه عن جيش سيده أو تجاهل دعوته العامة لعقد مؤتمر ففي ذلك الحالات تعلنه المحكمة خائنا وتامر بمصادره املاكه غير أن التنفيذ طبعا يعتمد على التوازن القوى بين التابع وسيده فالاتباع الأقوياء كثيرا ما يزدرون بتلك القرارات وليس لهم جواب الا السيف

4ـالتعهدات الإقطاعية

أشرنا إلى أن الرابطة بين السيد وتابعه مرتكزه على منافع متبادلة قد تكون مدرجه في عقد مبروم بينهما. ويتعهد فيه الأول أن يحافظ عن حياة وحقوق الثاني مقابل تعهد التابع بتقديم المساعدات والمشورات لسيده وتتضمن النقطة الأولى المساعدان العسكرية والاعانات المالية فعلى التابع الالتحاق بجيش سيده لمده معينه سنويا وجرت العادة أن تكون لا ربعين يوما وان يقوم خلالها الالتحاق بتزويد نفسه بأسلحة الفروسية الضرورية وان يتدبر نفقاته الخاصة كما وقد يكلف التابع احيانا القيام ببعض الخدمات مع عائلته في قصر النبيل اما الإعانات المالية فلم تكن على وتيره واحده في كافه الاقطاعات غير أن المثل القياسي ما كان شائعا في نور مندي

إذ يستوفي السيد الاقطاعي هناك الإعانات المالية من اتباعه حينما يصبح ابنه الأكبر فارسا وعند زواج بنته الكبرى ثم عندما يتطلب الأمر اقتداءه من الأسر وعلى التابع أيضا تقديم واجب الضيافة للسيد وحراسه أن دعت الحاجه اما المشورات فيقصد بها تقديم النصح والإرشاد إلى الرئيس الاقطاعي ومعاونيه في الإدارة الإقطاعية. فقد يحدث أن يستشار الاتباع لإبداء آرائهم في آمر من الأمور الحربية أو السلمية أو في قضايا جبايه الأموال أو في الأمور القضائية وتتم هذه الاستشارة عن طريق توجيه دعوه خاصه للاتباع لحضور مؤتمر يعقد في مقر الرئيس ة نذروا أنفسهم للموت دفاعا عن زعيمهم وينسب البعض المؤرخين جذور التبعية تاريخيا إلى مؤسسه رومانية يشار لها بالحماية Patrocinium. وهي أن يضع الفرد الحر نفسه وما يملكه تحت تصرف زعيم من الزعماء لقاه منافع متبادلة دفاعيه ومعيشيه ويشارإلى عمليه انضواء الفرد تحت لواء الزعيم بالالجاء Commendation لقد شهد العصر الميروفنجي تكاثر الاتباع نتيجه لفوضى الحروب الأهلية وماسيها